مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 15 العدد1 (2022): 331– 343 ISSN : 1112- 7163 EISSN: 2588-1892

المجتمع التقليدي وصناعة الفحل الماورائي من خلال قصة (قبّة سيدي عبد المالك) لـ: محمد الصدّيق معوش.

Traditional society and the industry of the metaphysical stallion through the story (The Dome of Sidi Abdelmalek) by: Muḥammad Al-Siddik Ma'ouch

السعيد قبنه

جامعة غرداية، الجزائر

كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي

مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري

guebna.said@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2019/08/19 تاريخ القبول:05./12 /2021 تاريخ النشر: 2022/06/09

ملخص:

تقدّم هذه الورقة تصوراً جديداً عن فكرة الفحل الثقافي غير تلك الصورة التي سوقها الغذامي في النقد الثقافي عن الفحل المتشعرن. إنّه الفحل الماورائي الذي يثبت ويترسخ مدعوما بقيم وثقافة المجتمع التقليدي.

ومن خلال قصة(قبة سيدي عبد المالك) –موضوع الدّراسة–للكاتب محمد الصدّيق معوش، سنرى كيف يتحول صاحب هذه القبّة إلى فحلٍ ماورائيٍ يمارس فحولته ميتاً كما مارسها حياً.

كلمات دالة : فحولة، مجتمع، تقليدي، نسق، ثقافة، ماورائي.

المؤلف المرسل: السعيد قبنّه : guebna.said@univ-ghardaia.dz

Abstract

This paper presents a new conception of the idea of the cultural stallion, other than the image promoted by Al-Ghadami in the cultural criticism of the hairy stallion. It is the metaphysical stallion that is established and entrenched, supported by the values and culture of traditional society.

Through the story (The Dome of Sidi Abdel Malik) - the subject of the study - by the writer Muhammad Al-Siddiq Ma'ouch, we will see how the owner of this dome turns into a metaphysical stallion practicing his virility dead as he practiced it alive.

Keyword: virility, society, traditional, style, culture, metaphysics.

1.مقدمة:

إذا اعتبرنا أنّ المجتمع التقليدي هو ذلك الكيان الاجتماعي الذي صار من الماضي، وأنّ له خصوصيات سلوكية ونفسية معينة قد لا تتلاءم مع واقعنا اليوم لأنّ كثيرا من وظائفها قد تعطّلت بحكم التطور والحداثة، وعوامل أخرى كثيرة منها؛ نظرة الاستصغار للماضي عند البعض أو حتى التهكّم من كل ما هو قديم بدعوى التخلّف، ومع هذا فإنّ المجتمع التقليدي كثيرا ما يوصف بالماضي الجميل أو الجيل الذهبي.

ولعل في ظهور النقد الثقافي ما يساعد على فهم خصوصيات هذا المجتمع ودراسة بعض الظواهر المجتمعية التي تعدّ من أجل اهتمامات هذا النقد والذي يعرفه كل من سعد البازعي وميجان الرويلي أنّه "كما يوحي اسمه نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبثه وتفكيره و يعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها" (البازعي، 2002، صفحة 305)، وهذا ما قد يتوفّر في النص السردي الذي يختار المجتمع التقليدي موضوعا له، بحيث تختبئ فيه الكثير من الأنساق الثقافية المضمرة التي تشكّل مواقف وخصوصيات هذا المجتمع، ومنها قضية الفحولة وأهم الأدوار التي تؤديها في هذا النوع من المجتمعات.

ويعرض علينا الكاتب (محمد الصدّيق معوش)* من خلال مجموعته القصصية (ذهب مع المطر) أحداث قصة قصيرة بعنوان:(قبة سيدي عبد المالك)، علماً أنّ السياق العام لأحداث هذه المجموعة –في تقديرنا– كان انعكاساً لتراجيديا المحنة الوطنية إبان عشرية الدم والدّموع التي عاشتها الجزائر في تلك الأيام العصيبة من تاريخها المعاصر، من جانب آخر فإنّ الكاتب –وكما يبدو ظاهرا من عنوان هذه المجموعة– متأثّر تناصيا بعنوان رواية (ذهب مع الريح) للكاتبة الأمريكية مرغريت متشيل Margaret Mitchell. (متشيل م.، https://en.wilipidia.org، 2019)

2.معنى الفحولة:

كثيرا مايتردد نسق(الفحولة) على ألسنة الناس اعتباطاً، وقد يلقى منهم كل مظاهر الاستحسان والقبول، وبسبب كثرة الاستعمال صار هذا النسق من المفردات المألوفة، كما أنّها قابلة للتداول في جميع السياقات؛ الحسية والمعنوية، وقبل أن نخوض فيه كنسق من الأنساق المتداولة في النقد الثقافي يجدر بنا أن نتعرف على معنييها المعجمي والاصطلاحي.

فعند الفيروز آبادي أنّ "الفحل هو الذكر من كل الحيوان.." (الفيروزآبادي، 2008، صفحة 1223) ، و بهذا المعنى البسيط ندرك أنّ الفحولة في اللغة ترتبط في الغالب بالتفرد وانتفاع الجماعة بالفرد والفردية النسقية إن جاز لنا الوصف، كما تنتفع (أناثي) الحيوان بالذكور منها؛ وعادة ما يكون هذا المتفرد جنسا وهوية مستقلا في تفكيره وتصرفاته، وقريباً من هذا المعنى يكون قد استقى نقاد الأدب معنى (الفحولة)رغم أنّهم ربطوها بفن الهجاء دون سواه من الأغراض الشعرية الأخرى، فالفحل هو الذي يستطيع أن يقهر مبارزيه من الشعراء كما فعل علقمة بن عبدة مع امرئ القيس، واستحق بسببها لقب علقمة الفحل (صقر، 1935، صفحة 3) لتفوقه على هذا الأخير في حكومة (أم جندب) الشهيرة، ومهما كانت صحة هذه الأخبار من عدمها

* محمد الصديق معوش من مواليد 1976 بوادي سوف (الجزائر)، بها نشأ وترعرع وزاول دراسته، عمل بسلك التدريس في التعليم المتوسط، ثم التعليم الجامعي، حاصل على شهادة الدكتوراه في النقد العربي ومصطلحاته، له مجموعتان قصصيتان؛ هما: ذهب مع المطر (2009) واعتراف (2017)، كما أنّ له العديد من الأبحاث في مجال المصطلحية، والمصطلح النقدي، يعمل حاليا أستاذاً محاضراً (قسم أ) بكلية الآداب واللغات في جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي ، الجزائر.

فإنّ الفحولة في الأدب ليس لها معيار تَقاس به إلا التفوق على الأقران والنظراء والأخذ بزمام المبادرة.

3.مفهوم الفحولة في ثقافة المجتمع التقليدي:

إنّ الثقافة الشعبية في مجتمع سوف (ديدي، 2007، صفحة 1) التقليدي الصحراوي– مثلاً– تتناول مصطلح الفحولة في عدة سياقات مختلفة دون أن تخرج عن المعنى الذي تحدّث عنه الغذامي في معرض حديثه عن الفحولة (الغذامي، 2005، صفحة 119)، غير أنّنا سنعرض في هذه الإطلالة الثقافية الطريفة بعض الأمثلة من بطون الأدب الشعبي قد تقربنا من هذا المفهوم، بحيث تتحول الفحولة إلى وسيلة لمطاردة الهوامش في هذا المجتمع، وتصبح معياراً للتفوق على الأقران والنظراء، ولا غرو أنّ الذهنية الشعبية تعدّ أكثر مرونة في التجاوب مع هذه الدّلالات، فلا بأس من هذا المنطلق أن نستأنس ببعض منها في هذه الدّراسة؛ وعلى سبيل الذكر لا الحصر فإنّه يقال:

–**"المرأة الفحلة"** (**البشير، 2018**): بسبب المآزق النسقية حين تغيب فحولة الرجال تتقلّد المرأة هذا المنصب في المجتمع التقليدي فيكون وسام الفحولة في مقابل فحولة الرجل وذلك لما يتخلى الرجل عن فحولته، فيقال (تلك المرأة فحلة)، لأنّها حافظت على شرف زوجها وتحملت أعباء حياتية تنوء بها كواهل الرجا ل، ولعل الثقافة تسمي ذلك باستفحال الأنثى، فالمرأة الفحلة قد تستلب بعضا من خصائص فحولة الرجال وتستعملها على سبيل الإعارة النسقية، فتنال بذلك تقدير واحترام الرجال ذاتهم، ولكن هذا النسق لا قيمة له ما لم يكن مسنودا من الثقافة التي ينتجها هذا المجتمع قد نسميها تجوزاً بالعيوب النسقية.

–**"يتفحل فيه"** (**البشير، 2018**): لما يراد التعريض بمن (تخلّى عن فحولته لغيره)، أو لعلّها استفزازا لفحولته الغائبة، وتتضمن هذه العبارة تورية لطيفة ونسقا مضمرا لكونه ساحة لمعركة نسقية صامتة الغرض منها السطو على نسق الفحولة مع سبق الإصرار والترصد، ومنازعة الفحل على مركزية الثقافة، وما وراء هذا الإضمار هو محاولة اختراع الفحل كما يقول الغذامي بممارسة فعل الفحولة، وما يفهمه العامة منها؛ هو استغلال الغير واستغبائهم والاستيلاء على حقوقهم دون وجه حق، ربما لضعف غير مقصود عند المستفحل فيه.

–"**شهر الفَحل (البشير، 2018)**: ويقصدون به شهر جويلية، وهو الشهر الذي تشتدّ فيه الحرارة في فصل الصيف، وتصبح الصحراء كتلة من اللهب، وترتفع درجة الحرارة لتصل إلى أرقام قياسية، وتصبح الظلال مطلبا عزيز المنال، لكن هذه الجملة الثقافية تحمل دلالة نسقية بحيث تتحول إلى نسق استعاري لغوي الغرض منه بيان درجة المعاناة الإيكولوجية التي يقاسيها إنسان الصحراء، واللغة حسب رأي امبرطو إيكو: "لا تشتمل إلا على المجازات فهي تبدي عكس ما تخفي" (إيكو، 2000، صفحة 14) ، فقد تتحول البيئة الإيكولوجية إلى بيئة ثقافية حيث تفرض اللغة نفسها بقوة الثقافة التي تمنحها الخصوصية ولو كان الموصوف البيئة الإيكولوجية نفسها.

4. المجتمع التقليدي/هل هو مجتمع الماورائيات؟

إنّ التأمل فيما يمكن أن يسمى بالماورائي ليس في الحقيقة إلا هروبا من الوحدة الموحشة، وسدٌّ لثغرات إنسانية موجودة في لوحة الكون، وبحث متواصل عن تفسير موحد عن العالم المهمش خارج نطاق العلم والعقل، ولعل هذا ما يمنحنا القدرة في ترك بصماتنا على الثقافة المجتمعية، وقد يخلق مفاهيم ومعتقدات تنتجها الجماعة الشعبية قد تؤثر إيجاباً أو سلباً على العادات والأعراف السائدة في هذه المجتمعات، ولا سيما المجتمع التقليدي الذي يعيش العلم فيه جنباً إلى جنب مع الخرافة. كما أنّ الماورائية أو (الميتافيزيقا) ترتبط عادة بالذاكرة الجماعية للشعوب من خلال الأديان والأنظمة العقائدية (الماورائي، 2021)، وعليه فإنّ المجتمعات التقليدية بحكم محدودية تواصلها مع الآخر المختلف تستعين غالبا في تفسير الظواهر الروحية المرتبطة أساسا بعقائدها بنسق الماورائي، لعل ذلك يعود في نظرنا إلى رواسب الأسطورة وبقايا الثقافة الغابرة في الماضي السحيق، لذلك ولّدت خيالا جامحا وتفكيراً أسطورياً مجنّحاً، فلا نعجب –إذن حين يتحول نسق الموت إلى متعالية اجتماعية طقوسية –إن جاز الوصف– تمنح جماعة المؤمنين به مبررا لمواصلة الحياة بثقة واطمئنان ، وذلك حين يعتقد أفراد هذه المجتمعات أن الميت يعيش حياة سعيدة ومكفولة في العالم الآخر، فما وراء الطبيعة في ذهنية المجتمع التقليدي لا يختلف كثيرا عما أمامها، فإن كان فحلا ماورائياً مثل سيدي عبد المالك، فلا شكّ أنّه سينعم بحياة طيبة وهادئة وهو في عالمه البرزخي حيث يتابع شؤون الناس، ويراقب كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، بل ويتدخل عند الضرورة بقسوة حين تَدنّس قبته ببول أحد الأطفال الأشقياء.

5. الفحل الماورائي/ البحث عن الشفرة الماورائية: يحتاج فكّ الشفرة الماورائية في المجتمع التقليدي إلى فهم أبعاد الظاهرة الدينية بعيدا عن جدل الفقهاء وحزم الأصوليين، بحيث يرى مرسيا إلياد أنّ "أمثال هذه المجتمعات مازالت تعيش على مقدّسات وأفكار لا يسمح معها بإعمال حكم العقل أو بمناقشة موضوعة من الموضوعات المقدّسة" (إلياد، 1988، صفحة 104)، وهذا يعني أنّ الدّين في المجتمع التقليدي كثيرا ما يتحول إلى متعالية طقوسية لا تقبل المراجعة أو النقد، إذ يغدو التعامل معها ضربا من المجازفة، حتى أنّه جاء في بعض توجيهات (الأولياء الصالحين) أنّ المريد لابد أنّ يكون كالميت بين يدي غاسله فيسمع ويطيع (المستغانمي، 1971، صفحة 93) ، وهو ما يظهر في سلوكات أفراده، فيستحيلون إلى دمى بشرية تتحرك في دائرة مغلقة.

يشخص لنا الكاتب في قصة "قبة سيدي عبد المالك" ظاهرة (الولاية) في المجتمع (السوفي)..وهي مسألة في صميم معتقد الشعب الجزائري، إذ يندر أن تجد قصة أو رواية أو حكاية من الأدب الجزائري الحديث لا تجد فيها إشارة إلى هذا النسق..فقد كتب ابن هدوقة (الجازية والدراويش) وكتب أحمد زغب (المقبرة البيضاء)، وكذلك الأديب الجزائري عز الدين جلاوجي (حوبة ورحلة الـبحث عن المهدي المنتظر)، بحيث لاحظنا أنّ الروائيين الجزائريين يميلون إلى معالجة هذه الظاهرة في جانبها الرمزي باعتبارها نسقاً ثقافيا يعدّ جزءا من الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري، وذلك دون ربطه بالحكم النقدي ولو على سبيل الانطباع والذوق، لعل هذا في رأينا يعود إلى غلبة المظهر الطقوسي عليه واحتفاء الجزائري بالعالم الروحاني أو الماورائي، فالولي الفحل حيا كان أم ميتاً فهو مدعوم من الثقافة في كلا الحالتين.

ولا شكّ أنّ تراثنا الشعبي قد رسم للأولياء صورا خارقة للبطولة، فهم الأقدر على تغيير الواقع حسب اعتقادهم ، وكل معاركهم مع الباطل مكلّلة بالنصر المبين لأنّهم مؤدين بالقوى الغيبية التي قد تفسرها الثقافة الشعبية بالقوى الماورائية فهم فحول ماورائيين، وكما يقول الغذامي "الفحل الثقافي محصن ومحروس تحرسه الثقافة بكل وسائل الحماية وتتخذه نموذجا للقدرة الاجتماعية كنسق يثبت ويترسخ" (الغذامي، 2005، صفحة 2011)، ولهذا يقدّمهم المخيال الشعبي كأنساق مضمرة غارقة في الرمزية ، مما يكسبهم صفة الفحولة الماورائية التي تمارس سلطتها الدينية خارج فضائي

الزمان والمكان، ذلك أنّ الفحل الماورائي ينعم بالحياة الرمزية داخل هذا المخيال، بينما تتولّى الثقافة حمايته من أي تهديد نسقي قادم من الخارج.

6.حرمة الأولياء/ ظلال الفحل الماورائي: وللتخلّص من السردية المفرطة يتفيأ الكاتب البطل ظلال الحوار مرة أخرى ..يستنطق الصبية و هم يمارسون أفعال الشر كما عبر عنها الكاتب..وهي صورة قاتمة لغياب التربية عند الأطفال في زمن الضياع ..حيث يدور حوار جاد بين الكاتب و حامل لواء الأشرار حول مسألة تبوله تحت قبة سيدي عبد المالك الولي الصالح ..يستوقف الزمن الحكائي هنا الصبية ليقدم لهم درسا في حرمة الأولياء:

يقول الكاتب:"..و ما كدت انتهي حتى وقف أحد زعماء الشر من أطفال الحي، وبدأ يصيح: أوو..أوو..أووك..ماذا فعلت ؟" (معوش، 2009، صفحة 17).

ولهول الصدمة يلتفت الكاتب وقد تملكه الهلع مستنكرا..لحظات ويلتف الصبية كعادتهم حول المتحاورين..ثم بحنكة القائد يخطب زعيم الشر في جمعه منبها إياهم لخطورة الجرم الذي أقدم عليه صاحبهم..ثم يتواصل الحوار بين الصبيين أحدهما بجسارة وترفع وأما المذنب فهو منصت وخائف من عواقب ما فعله بالقبة، إذ أنّ سيدي عبد المالك أن يسكت على هذا الجرم الفظيع الذي طال قبته الشريفة ومرقده الآمن ، ولما ضاقت الأرض بالصبي أسرع إلى جدته محاولا التعرف على قصة هذا الرجل المبارك خوفا على نفسه من بطشه، وحتى تطمئن نفسه القلقة إلى خيرية هذا الرجل؛ لأنّ الأمر الآن جدّ وليس هزلاً، فقد أخبره [حامل لواء الشر] أن الحادثة لن تمر بسلام وأنّ العقوبة لا مفر منها، ولكي يطمئن على إفلاته من العقوبة .سأل الجدة بشجاعة فيها كثير مِّن التكلّف والترقّب:

–"هل هو رجل يفعل الخير دائما ويسامح الناس؟ اكم كان جواب الجدة برداً وسلاماً عليه حينما أكدت له ذلك..!! ولكن الجدّة سرعان ما حذّرت من أنّ الله سينتقم من كل من يؤذيه..!فإذا الحمى والخوف يعودان إلى الجسد الصغير..!" (معوش، 2009، صفحة 19)

بعد هذا الحوار الخفيف بين الكاتب والجدّة، يبتعد الكاتب عن مسرح الجريمة قليلا وفي ومضة تبئيرية يتحول بنا إلى الحديث عن العادات والتقاليد المرتبطة بهذه الفكرة، وكأنّه **يريد أن**

يغتنم هذه الفرصة فيؤرخ لحقبة زمنية مهمة من تاريخ حياة الجماعة الشعبية في وادي سوف من خلال التعرض لبعض الطقوس الدينية التي تؤدى في مناسبة عاشوراء قائلا: "..ويوم عاشوراء، صبايا يحملن عراجين تمر فارغة يربطن على شماريخها خيوطاً بيضاء وخضراء وأخرى حمراء، يدخلن القبة ويخرجن منها وهن يغنين بنغم عجائزي: ارفع الأوكاس* يا رب عن هاذي الناس.." (معوش، 2009، صفحة 26) ثم يعود بالصورة إلى أصل المشكلة وقبة سيدي عبد المالك التي تنتهي أحداثها بمشهد مأساوي حين ينام الرعب مع الصبي وهو يبحث عن التوبة التي لا يجدها. إلا في بسملة أمه نهاية المطاف.

7. **شريعة الانتقام عند الفحل الماورائي**: تقدّم القصة بورتري خاطف عن شخصية هذا الولي الفحل على لسان الجدّة وهي تخاطب حفيدها:"يقول الناس يا ولدي أنّ وليا صالحا اسمه سيدي عبد المالك مر يوما في هذا الشارع فدعاه رجل إلى العشاء وحينما أحضر الطعام قال سيدي عبد المالك للرجل:ادع الناس إلى العشاء فقال الرجل: ولكنّه لا يكفيهم، فقال سيدي عبد المالك: ادعهم والأمر علي، فأخذ الرجل ينادي في أهل الحي والمارة فأكلوا جميعا حتى شبعوا، وعندها علم الناس أنّه ولي، ثم بنيت القبة هناك في ذلك المكان" (معوش، 2009، صفحة 24)، ولهذا قالت الجدّة معقّبة "..نعم إنّه ولي من أولياء الله الصالحين، ومن آذاه فإنّ الله سينتقم منه" (معوش، 2009، صفحة 24)

ولهذا فإنّ معاناة الصبي لم تنته لمجرد سماعه لأقوال الجدّة التي تبعث على الاطمئنان من انتقام هذا الولي الفحل ممن دنّس قبته، بل راح خياله الصغير يرسم سيناريوهات قاتمة لهذا الانتقام وقد كثرت هواجسه:"وإذا كان الإنسان غير متعمد؟..قالت: لست أدري يا ولدي نحن مسلْمين مْكَتْفين..أولياء الله الصالحين ربّ ينفعنا ببركتهم ويرضّيهم عنّا.." (معوش، 2009، صفحة 25)، ولهذَا فإنّ الجدّة وتماشيا مع ثقافة المجتمع التي تدعم الفحل بكل وسائل الثقافة؛ ومنها النسق الماورائي، ولذلك فإنّ الجدّة أغلقت باب المراجعة مع حفيدها لما حاول الاقتراب من بشرية الفحل وقالت له: (لست أدري نحن مسلمين مكتّفين) (معوش، 2009، صفحة 25)

* مفردها (وكْس) وتجمع على (أوكاس) وتعني في لهجة الجماعة الشعبية بمنطقة سوف الجزائرية النحس والتشاؤم من القادم. ويقال لنذير الشؤم إذا أقبل نحوهم: (جاء وجه الوكْس)

فشريعة هذا الفحل تهيمن قوانينها الماورائية على اللاوعي العام للجماعة الشعبية، ويتجلّى ذلك من خلال الثقافة التي يسوقها أفرادها في نظرتهم للماورائي معادلا موضوعيا لدورة الحياة عندهم، لذلك فإنّ الانتقام هو الأداة الرادعة لكل من تسول له نفسه الاقتراب من محارم هذا الفحل، والقصة شخصت أسلوب هذا الانتقام وجاء كما يلي:

–فقد يعاقبه سيدي عبد المالك بأنّ يتحول الصبي إلى امرأة ممّا سيسبب له الحرج مع أقرانه وأهله، بل وقد يتوقف عن الدراسة وحتى اللعب مع أترابه:"ترى هل عاقبني ذلك الولي الصالح؟ هل أنا امرأة الآن؟ لا يمكنني أن أتحسس جسدي الآن حتى لا أتحقّق من الكارثة المفزعة.وما الحل إن أنا تحولت إلى امرأة؟" (معوش، 2009، صفحة 26)

– يخشى أن يمسخه سيدي عبد المالك كلبا، ومع هذا فهو يفضل أن يكون كلب بيوت أليف حتى لا يطرده أهل الحي ليعيش مع الكلاب المتشردة في الصحراء، فقال بينه وبين نفسه" ولكن ماذا لو تحولت إلى كلب؟ ياللسوء أن أكون كلبا وأُربط أو أُطلق في السطوح، ولكن أيها أفضل أن أكون كلبا أبيض أو أحمر أو أسود؟" (معوش، 2009، صفحة 28)

– لعل الموت يفاجئ الصبي فيرتاح من هذا الهم، فحينما يعلو النواح في الحي ويسرع الناس إلى دار الصبي سيعلمون أنّ سبب الوفاة هو تبوله على قبة سيدي عبد المالك، ومن هنا سوف يرسم الخوف له نهاية مأساوية: "سيعلو البكاء والنواح في الصباح الباكر ويهرع الناس إلى بيتنا ويعرف الصبيان أني مت، وسيخبرهم ذلك الصبي أنّ هذا بسبب قبة ذلك الولي الصالح لأنّه آذاه ولم يحترمه فعاقبه بالموت" (معوش، 2009، صفحة 30) ، فكل هذه الهواجس كانت تهدّد كيان الصبي هدّاً، إذ أنّ الخوف من سطوة الفحل الماورائي سيدي عبد المالك يصير حياته إلى جحيم، ولكننا قد نتساءل: من الذي صنع كل هذه التراجيديا الطفولية؟ والجواب تجيبنا عنه ثقافة هذا المجتمع تلكم التي صنعت هذا الفحل، وتركته يصول ويجول دون رادع أو رقيب، ذلك أنّ المجتمع التقليدي يعدّ مجتمعا مغلقاً، إذ أنّ فرص التواصل مع الآخر المختلف محدودة جداً، لذلك وجدت الأسطورة نفسها تتحين وتترسخ وفق آلية المجايلة(جيلا بعد جيل)، فالجدّة أسهمت بصفة غير مباشرة في ترسيخ فكرة الفحل الماورائي باعتبارها مرجعا وسنداً أيديولوجياً قد يحقق التوازن المجتمعي ويؤدي دورا فعالا في ما يعرف بقانون الضبط الاجتماعي.

8.خاتمة:

في الختام نجمل أهم نتائج هذه الدّراسة كالآتي:

– قدّم البحث تصوراً جديداً عن الفحل الثقافي، فقد يصير المجتمع التقليدي نسق الأولياء الصالحين إلى فحول ماورائيين، كما هو الشأن مع (سيدي عب المالك) صاحب القبة.

– الفحل الماورائي تجنّد له كل وسائل الثقافة في المجتمع التقليدي حتى يتمكّن من أداء دوره كاملاً. ومن هذه الوسائل نسق الكرامة، فقد حكت الجدّة لحفيدها أنّ سيدي عبد المالك أطعم الحي بأكمله من جفنة واحدة.

– يتبوأ الولي الصالح في ثقافة الجماعة الشعبية ذروة الفحولة، ولا تختلف أدواره عندها حيا كان أم ميتاً، وقد رأينا ذلك في قصة (قبة سيدي عبد المالك)، وكيف تحول شبح الانتقام من أعدائه إلى تداعٍ حر يأسر عقول الناس ولا سيما الأطفال منهم.

– يعدّ موت الفحل الماورائي في عرف المجتمع التقليدي معادلا موضوعياً لحياته، لذلك فإنّ المجتمع التقليدي يساوي بين خيرية هذا الفحل وانتقامه، فقد قالت الجدّة "مْسلْمين مْكَتْفين"، وهي عبارة ثقافية تعكس حقيقة هذه النظرة.

– غياب ثقافة المراجعة عند المجتمع التقليدي هي أحد الأسباب التي تحافظ على توازن هذا المجتمع وديمومته، وقد يسهم ذلك بشكل كبير في استمرار تسلّط الخرافة وتحين الأسطورة في عقول أفراده.

9.ملخص القصة:

يمهد الكاتب – محمد الصدّيق معوش لقصته (قبة سيدي عبد المالك) بالحديث عن مواسم اللعب عند أطفال الصحراء، فيذكر ما يقوم به هؤلاء الصبية في ذكرى ليالي المولد النبوي الشريف، ثم يعرج على شقاوتهم أثناء العطل الصيفية كالقفز والجري فوق قباب البيوت الجبسية ذات المظهر العمراني الجميل الذي يميز منطقة سوف الصحراوية.

وفي حادثة غريبة يستوقف الكاتب الزمن فيها، ليعيش محنة طفولية حقيقية تجبره على الدخول في عزلة قسرية لأيام بعيداً عن رفاقه وأهل حيه. فقد أقدم الصبي(الكاتب) بعد نوبة لعب على التبول فوق قبة الولي الصالح (سيدي عبد المالك)، إنّها الحادثة التي أسلمته إلى تداع حر من الأفكار والهواجس وكادت أن تطفئ شمعة حياته.

لم يكن التبول على قبة الولي الصالح سيدي عبد المالك بالأمر الهين، فقد اصطدم الصبي بجبروت هذا الفحل الماورائي، إذ ظلّت صورة الانتقام تطارده ولم يشفع له حتى استئناسه بحديث الجدّة عن خيرية هذا الرجل الصالح صاحب الكرامات الباهرة حياً وميتاً، فقد ظل الصبي يترقّب نوع العقوبة التي ستطاله جراء فعلته الشنيعة.

تنتهي أحداث قصة (قبة سيدي عبد المالك) حين يقف الصبي مرتعباً في حركة هستيرية وهو يصرخ بعد أن جاءت أمه لتوقظه من هذا الكابوس الرهيب: (لست متعمدا.. لست متعمدا..) بعد أنّ ظن أنه لن يستيقظ أبداً إلا وهو ممسوخ امرأة أو كلباً أو جثة هامدة عقوبة له على تعدّيه على حرمة الفحل الماورائي–سيدي عبد المالك–.

–قائمة المراجع:

1– إمبرطو إيكو، التأويل بين السميائية والتفكيكية ، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2000.

2– السيد أحمد صقر، شرح ديوان علقمة الفحل، المكتبة المحمودية، القاهرة، ط1، 1935.

3– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 2005.

4– الفيروزآبادي(مجد الدين)، القاموس المحيط، تح: محمد أنس الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008.

5– محمد السعيد ديدي، وادي سوف كنوز من الجزائر، ج1، مكتبة الريحان، 2007، الوادي.

6– محمد الصدّيق معوش، قصة قبة سيدي عبد المالك (المجموعة القصصية ذهب مع المطر)، منشورات الشهاب، الجزائر، 2009.

7– محمد بن أحمد البوزيدي المستغانمي، الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

8– مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، تر. عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، دمشق ، 1988.

9– ميجان الرويلي، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002.

الرواة الشعبيون:

–تواتي البشير بن العرابي،70سنة، يقيم ببلدة المقرن(الوادي)، لقاء في بيته يوم: 15/05/ 2018، الساعة 16.

المواقع الالكترونية:

– الماورائي: الموسوعة الحرة: https://www.marefa.org، تاريخ الزيارة: 2021/04/28 الساعة: 22.

–مرغريت متشيل: الموسوعة الحرة https://en.wikipedia.org تاريخ الزيارة: 2019/06/29 الساعة: 21.

–ملاحق:

ملحق رقم (1) صورة الغلاف الأمامي للمجموعة القصصية (ذهب مع المطر)